دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الوقف العلمي في الغرب الإسلامي بين جِدّة الفكرة وريادة التجربة
خزانة أبو الحسن الشّاري بسبتة (ت. ٦٤٩هـ/١٢٥١م) أنموذجًا

د. أحمد الصديقي
أستاذ التعليم العالي مساعد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر – المملكة المغربية

مُلَخّص

لقد انفتحت مختلف الفئات الاجتماعية بالغرب الإسلامي على ظاهرة الوقف خلال العصر الوسيط، ووجدت مرجعيتها في اعتبارها "صدقة جارية" حث عليها الإسلام ورغب فيها، انطلاقًا من قوله (ﷺ) "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". وإذا كان تاريخ الظاهرة بالمنطقة يرجع إلى وقت مبكر، فإن ما ارتبط منها بعملية الوقف على المؤسسات العلمية والثقافية لم يظهر إلا في وقت متأخر لاسيما بمدينة سبتة، التي شكلت أول مدينة مغربية تعرفت على هذا النوع من المؤسسات التربوية التعليمية العامة التي تهتم بتنظيم الإنتاج الثقافي المكتوب والمدوّن، وتجمعه على شكل خزانات، وذلك تزامنًا مع وقف الشيخ أبي الحسن الشاري (ت. ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) لخزانة كتب على مدرسته بسبتة. أجمعت المصادر التي ترجمت له بكونه "جماعة للكتب والدفاتر مغاليا في أثمانها، وربما أعمل الرحلة في التماسها، حتى اقتنى منها مجموعة كبيرة فيها، ثم انتقى منها جملة وافرة فحبسها في مدرسة أحدثها بجوار باب القصر، أحد أبواب بحر سبتة"، ولم تقف جهوده عند هذا الحد بل أبدع في تدبيرها، حيث عيّن لها جهازًا إداريًا وأطرًا تنظيمية تسهر على تبويبها وتسييرها، سالكًا في ذلك طريقة مبتدعة، فاختار لها مداخيل خاصة "من خيار أملاكه، وجيد رباعه، جملة وقّفها عليها". لقد قدمت هذه التجربة التاريخية حول فكرة وقف خزانات الكتب على المؤسسات العلمية والثقافية العامة دفعة قوية في اتجاه تنشيط الحياة الفكرية والثقافية، ودللت صعوبة الحصول على موارد القراءة لا سيما من قبل الطلبة والأساتذة، ومن المرجح أنها ألهمت المرينيين فكرة إنشاء الخزانات العلمية على المدارس التي أنشأوها بمختلف المدن المغربية، سعيًا إلى التحكم في موارد المعرفة الداعمة لسياستهم ومشروعيتهم، مما يجعلها فكرة رائدة في حينها، تستحق الدراسة والتحليل، لاستكناه جدتها وملابساتها، ومواقف الفقهاء/ العلماء اتجاهها، والآثار الفكرية والثقافية التي خلفتها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٧	يناير	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٩	فبراير	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

اقتناء الكتب؛ الوراقة؛ خزانات الكتب؛ المغرب والأندلس؛ المكتبات الخاصة

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2020.149537

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحمد الصديقي. "الوقف العلمي في الغرب الإسلامي بين جِدّة الفكرة وريادة التجربة: خزانة أبو الحسن الشّاري بسبتة (ت.٦٤٩هـ/١٢٥١م) أنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد السابع والأربعون؛ مارس ٢٠٢٠. ص٤٨ – ٥٧.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: sadikii37@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

يُعَدّ وقف خزانات الكتب أحد أهم مظاهر الاهتمام بالكِتَاب، وسبيلاً لتيسير القراءة، ووسيلة لخدمة البحث العلمي والحفاظ على نشر التراث الفكري، لاسيما في مجتمع الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، الذي ركن زمنا طويلا لثقافة المشافهة، مما أدخله في منعطف تاريخي حسم فيه خيار التعامل مع ثقافة المشافهة التي تتعرض غالبًا لآفات النسيان أو التحريف بالزيادة والنقصان، والتعويل في المقابل على ثقافة الكتابة والتدوين بما تتميز به من توثيق للعلم وتقييده ليخلَّد في بطون الأوراق[1]، مما برر ظاهرة الإقبال على التدوين في مختلف العلوم والفنون[2]، فبدأت الكتب تحتل مكانة متزايدة بشكل تدريجي بين فئات المجتمع إلى جانب الاهتمام بالحفظ والرواية الشفهية[3]. ولا شك أن مستوى الاهتمام بمسألة وقف خزانات الكتب عكس طبيعة الحراك الثقافي والفكري الذي عرفته المنطقة بين مجمل البنى الاجتماعية، وإفصاحه عن سيولة التواصل الثقافي بين قلب العالم الإسلامي ومغربه، على الرغم من تداخل جملة من العوامل التي حالت بيننا وبين هذا التراث الغني، بفعل ضياع الكثير من الخزانات إذ لم يصلنا من محتوياتها إلا النذر القليل[4].

وثمة ما يؤكد على أدوار الكِتاب الريادية في تشكيل وعي الناس بالمنطقة، إذ لم تتردد نصوص الفترة في الإفصاح عن دور الدولة في انتعاش الحركة الورقية، سواء من حيث التشجيع على التأليف[5]، أو البحث عن الكتب وتخصيص ورصد أموال طائلة لجلب النادر منها من مختلف الأصقاع. ولا شك أن انتشار استعمال الورق والوِراقة هيأ تربة خصبة لرواج الكِتاب، وعلى الأخص بين أبناء الطبقة الميسورة والفئات الوسطى، نظرا لما حظي به من قدرة على جلب للهيبة والعظمة تجاوزت أحيانا أبهة الإمارة والولاية[6].

وعلى الرغم من ارتفاع أثمان الكتب أحيانًا، فإن اقتناءها كان يتطلب أموالاً طائلة؛ يذكر ابن بشكوال أن سلمة بن سعيد (ت. ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) ((ساق من المشرق إلى بلاد الأندلس ثمانية عشر حملا مشدودة من الكتب.. وكانت في كل فن من العلم، ولم يتم له ذلك إلا بمال كثير حمله إلى المشرق))[7]، مما يفسر حصر امتلاكها بين فئات اجتماعية محظوظة اقتصاديًا[8]، استطاعت أن تكوّن لنفسها خزائن خاصة للكتب، في وقت برزت فيه نزعة المباهاة بنوادر الكتب والمخطوطات، وجمعها على شكل خزانات أنشئت لهذا الغرض[9] بهدف تلبية رغبات بعض أفراد هذه الفئات أو لإشباع نهمها من القراءة؛ كما هو شأن الحكم المستنصر الأموي (٣٥٠-٣٦٥هـ/ ٩٦١-٩٧٦م)؛ إذ يصف ليفي بروفنصال ولعه بجمع الكتب بقوله: ((إن شبكة حقيقة لحسابه من الباحثين والسماسرة والنساخين قد انتشرت، وأخذت تتابع تحرياتها عن التآليف في طول العالم الإسلامي وعرضه))[10].

ولم يقتصر الأمر على اقتناء الكتب أو الرحلة في طلبها لتراكم هذا الرأسمال الرمزي بل تعددت طرق جلبها حيث شاع نسخ الكتب وبيعها، وذاع تقديمها في أحيان كثيرة كهدايا؛ حيث أهدى أحد خلفاء الموحدين لأبي موسى الجزولي (ت٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) ((دارا تشتمل على خزانة كتب))[11]، وتحولت ملكية الكتب والخزانات عن طريق التنكيب والمصادرة؛ كما حدث لخزانة كتب أبي الحجاج المراني على عهد يوسف بن عبد المؤمن الموحدي (٥٥٩-٥٨٠هـ/ ١١٦٣-١١٨٤م)[12]، وفي الوقت ذاته ذاعت ظاهرة وقف الكتب؛ حيث بدأت بوادر هذه الظاهرة في الانتشار منذ القرن ٤هـ/ ١٠م؛ يذكر صاحب الذيل والتكملة أن أميمة الكاتبة جارية الحسن بن حي (ت٣٠٥هـ/ ٩١٨م) اشتهرت بكتابة المصاحف وتحبسيها[13]. كما كان قاسم بن سعدان بن إبراهيم من أهل رية بالأندلس (ت٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) أشد الناس اعتناء بالكتب ((ولم يزل في نسخ ومقابلة إلى أن مات [..] وحبس كتبه فكانت موقفة عند محمد ابن أبي دليم))[14].

وقد تضافرت هذه العوامل وغيرها في تخصيص أماكن خاصة كجزء من قصر أو بيت أو مؤسسة، اتسم بطابع فكري وحمل مدلولات ثقافية، أطلق عليها اسم خزانات الكتب أو المكتبات أو دور الكتب[15]، فسحت المجال أمام الفئات المحرومة من الطلبة خاصة للمطالعة والقراءة، تفاديا لغلاء أثمانها، وسواء ارتبط امتلاك هذه الخزانات بالأفراد أو وقفها على المؤسسات الدينية والثقافية كالمساجد والزوايا (الخنقاوات) والمدارس، فإن مجملها احتكرته المجالات الحضرية بالمنطقة، كقرطبة وإشبيلية وغرناطة وفاس ومراكش، وكان من أهميها مدينة سبتة.

وتعتبر مدينة سبتة أحد مراكز الثقافة العربية الإسلامية الكبرى بالغرب الإسلامي، التي ظلت على امتداد تاريخها الإسلامي دار علم وحضارة، نظرا لِما أبدعه أعلامها من نتاج علمي في مختلف ميادين المعرفة والثقافة الإنسانية، تجاوز في تأثيره محيط الغرب الإسلامي، ليصل إلى أصقاع بعيدة لا سيما إلى المشرق.

وقد حظيت هذه المدينة بموقع استراتيجي كمجال للعبور من وإلى الأندلس، أهّلها أكثر من غيرها للريادة في كثير من

المجالات، مستفيدة من سيولة العلاقات الثقافية بين المشرق والمغرب، مع ما يستتبع ذلك من تلاقح ثقافي ومعرفي، ما أعطى للمدينة وأهلها بعدًا إضافيًا في ميادين الخلق والإبداع، الأمر الذي عكس جدة الأدوار التي قامت بها خلال تاريخها الطويل، فضلاً عن أصالة أهلها بما اشتهروا به من ((سير فاضلة من القيام على العلوم والعكوف على العمل بها .. حتى انتشر لهم بذلك صيت في أقطار الأرض))[١٦]، ونخص بالذكر في هذه الورقة الجهود الوقفية للعالم الفقيه المحدث أبي الحسن الشاري الغافقي الأندلسي السبتي (ت.٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)، لاسيما إنشاء خزانة الكتب العامة بمدرسته بسبتة، وما تلى ذلك من ردود فعل مختلفة.

لقد قدمت هذه التجربة التاريخية حول فكرة وقف الكتب على الخزانات العامة دفعة قوية في اتجاه تنشيط الحياة العلمية والثقافية، ودللت صعوبة الحصول على موارد القراءة لا سيما بالنسبة للطلبة، مما يجعلها فكرة رائدة في حينها، تستحق الدراسة والتحليل، لاستكناه ملابساتها، ومواقف الفقهاء/ العلماء اتجاهها، والآثار الفكرية والثقافية التي خلفتها.

أولاً: سيرة أبي الحسن الشاري السبتي (ت.٦٤٩هـ/١٢٥١م)

حظيت ترجمة أبي الحسن الشاري باهتمام كبير من مترجمي الغرب الإسلامي؛ مثل تلميذه ابن الزبير الذي "تفرد بالسنن الكبير للنسائي عنه"[١٧]، وقد تُرجم له في "صلة الصلة"، وفي "الإحاطة" لابن الخطيب، وفي "جذوة الاقتباس" لابن القاضي، وأدرجه ابن عبد الملك المراكشي في قسم الغرباء في مصنفه "الذيل والتكملة"..

فهو الإمام الحافظ المقرئ المحدث شيخ المغرب أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى الغافقي الشاري ثم السبتي، وشارة بلدة من عمل مُرسية[١٨]، وبها أصل أسرة أبي الحسن، وسبتة مولده وموضع نشأته. ففي معرض حديث ابن الزبير[١٩] عن أستاذه أبي الحسن الشاري قال: ((ولد في خامس رمضان سنة إحدى وسبعين وخمسمائة))، ويحدد ابن القاضي[٢٠] تاريخ انتقال والد أبي الحسن الشاري من شارة بالأندلس إلى سبتة في سنة ٥٦٢هـ. ما يؤكد مولد أبي الحسن الشاري بسبتة بعد استقرار أسرته بها بحوالي تسع سنوات. وفي تفصيله لحياة أبي الحسن الشاري يذكر عبد القادر زمّامة[٢١] أن الشاري نشأ بـ((سبتة نشأة علمية يرعاه والده وأساتذته، ويجد في حلقات الدروس وخزائن الكتب واللقاءات العلمية التي تمت في هذه المدينة على عهد يعقوب المنصور الموحدي وابنه الناصر ما يدفعه إلى استيعاب عدة فنون، والاستفادة من عدة شيوخ.. والمعرفة إذ ذاك متشابكة متداخلة فيها الحديث برواياته وطبقات رجاله. والقرآن الكريم بقراءاته وطبقاته وقرائه، والنحو واللغة والفقه والكلام.. وطالبُ هذه العلوم يجتهد ليربط سنده فيها بالأعلام المبرزين أينما كانوا.. وينال إجازاتهم)).

وعن مساره العلمي يذكر ابن الزبير أن أبي الحسن الشاري تتلمذ على يد ثلة من علماء وقته بمختلف الحواضر العلمية بالعدوتين، فقد درس عند ((أبي محمد بن عبيد الله الحجري ولازمه، فتلا عليه ختمة بالسّبْع، وأخذ القراءات عن أبي بكر يحيى بن محمد الهوزني في ختمات، والمقرئ محمد بن حسن بن الكمّاد، إلا أنه اعتمد على ابن عبيد الله لعلو سنده، وقرأ عليه "الموطأ"، وسمع عليه الكتب الخمسة سوى يسير من آخر كتاب "مسلم"، وسمع منه أيضا "مسند" أبي بكر البزار الكبير، و"السير"، و"تهذيب" ابن هشام، وحمل عن أبي عبد الله بن غازي السبتي، وأبي ذر الخشني، وأيوب بن عبد الله الفهري.. وقرأ على أبيه أشياء، وتلا عليه بالسبع)).

وفي معرض حديثه عن شيوخ أستاذه يذكر ابن الزبير أن أبا الحسن الشاري: ((لازم بفاس الأصولي أبا عبد الله محمد ابن علي الفندلاوي الكتاني[٢٢]، وتفقه عنده في علم الكلام وفي أصول الفقه وعلى جماعة بفاس، وسمع بها من عبد الرحيم بن الملجوم[٢٣]، ولازم في العربية ابن خروف، وأبا عمرو مرجى المرجيقي[٢٤]، وأبا الحسن بن عاشر الخزاعي، وأجاز له أبو القاسم بن حبيش، وأبو زيد السهيلي[٢٥]، وأبو عبد الله ابن الفخار، ونجبة بن يحيى. وكان آخر من حدث عن ابن عبيد الله، وآخر من أسند عنه السبع تلاوة بالأندلس وبالعدوة))[٢٦].

لقد جمع أبي الحسن الشاري كثيرًا من خصال التواضع وسجايا العالم، يصفه تلميذه ابن الزبير بقوله: ((كان ثقة متحريا، ضابطا عارفا بالأسانيد، والرجال والطرق، بقية صالحة وذخيرة نافعة، رحلت إليه فقرأت عليه كثيرا وتلوت عليه، وكان منافرا لأهل البدع والأهواء، معروفًا بذلك، حسن النية، من أهل المروءة والفضل التام والدين القويم، منصفًا، متواضعًا، حسن الظن بالمسلمين، محبا في الحديث وأهله، كان يجلس لنا بمالقة نهاره كله إلا القليل.. وكان شديد التيقظ مع شاخته وهرمه، ما امتنع قط عمن قصده، ولا اعتذر إلا من ضرورة بينة))[٢٧].

وقد تتلمذ على أبي الحسن الشاري عدد كبير من أهل العلم بالمغرب والأندلس، وكان أبرزهم المؤرخ ابن الزبير الذي ((تلا

بالسبع على أبي الحسن الشاري وسمع منه))[٢٨]، حتى (تفرد بالسنن الكبير للنسائي عنه))[٢٩]، وفي هذا الصدد نقل الذهبي عن ابن الأبار في "التكملة"[٣٠] تقديره وإعجابه بأبي الحسن الشاري قائلا: ((شارك في عدة فنون، مع الشرف والحشمة والمروءة الظاهرة، واقتنى من الكتب شيئا كثيرا، وحصّل الأصول العتيقة، وروى الكثير، وكان محدث تلك الناحية))[٣١]، ويذكر ابن الزبير أنه أخذ ((السنن الكبير" للنَّسائي من أبي الحسن الشاري بسماعه لجميعه من ابن عبيد الله، حدثنا أبو جعفر البطروجي، أخبرنا ابن الطلاع، أخبرنا ابن مغيث، أخبرنا محمد بن معاوية بن الأحمر عن النسائي. قال ابن رُشيد: أحيا الشاري بسبتة العلم حيا وميتا، وحصّل الكتب بأغلى الأثمان، وكان له عظمة في النفوس رحمه الله. قال ابن رشيد: حدث عنه شيخنا أبو فارس عبد العزيز بن إبراهيم بـ"البخاري" سماعا عن رجاله منهم: ابن عبيد الله سماعا سنة تسعين، عن شريح قال: ورواه شيخنا أبو فارس عن أبي نصر الشيرازي إجازة عن أبي الوقت))[٣٢].

وقد تنقل بين عدد من مدن المغرب والأندلس سواء خلال فترة طلبه للعلم أو بعد تمكنه منه مثل مدن سبتة وفاس، ومالقة وغرناطة، دون أن نجد دليلاً واضحًا يشير إلى رحلته إلى المشرق، فخلف عددا من التلاميذ بهذه المدن. وقد دخل الأندلس في سنة (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م)، ((فنزل المرية فبقي إلى سنة ثمان وأربعين، وأخذ عنه بها عالَم كثير، وأقرأ بها القرآن، ثم قدِم مالقة في صفر سنة ثمان. وحدث بغرناطة، وأخذ عنه بمالقة جلة، كأبي عبد الله الطنجالي، والأستاذ حميد القرطبي، وأبي الزهر بن ربيع))[٣٣]. ونظرًا لهذا التراقص بين المدن العلمية بالعدوتين، سواء الطوعي منه، أو بفعل التغريب عن مسقط رأسه سبتة إلى الأندلس، فقد صنفه ابن عبد الملك المراكشي في "الذيل والتكملة" من "الغرباء"، وبدخوله غرناطة ترجم له ابن الخطيب في "الإحاطة"، ولسعة علمه وروايته ترجم له تلميذه ابن الزبير في "صلة الصلة".

وبالرجوع إلى الفترة المضطربة التي عايشها أبو الحسن الشاري بمدينة سبتة، بعد هزيمة الموحدين في معركة العقاب سنة (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)، فقد تظافرت عدة عوامل تسببت في تغريبه إلى الأندلس سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) حسب روايتي ابن الزبير وابن الخطيب، ويُفَصّل ابن الخطيب في دواعي هذا التغريب بقوله: ((غربه أمير سبتة اليانشتي الملقب بالواثق بالله، ... فدخل الأندلس في شعبان عام ٦٤١هـ، وقد بلغ سن السبعين))[٣٤]. ويستدرك الأستاذ عبد القادر زمامة هذا الخلط الذي حصل عند ابن الخطيب في ولاية سبتة بقوله: ((يظهر أن كلام ابن الخطيب فيه شيء من عدم الدقة. وذلك بأن الياشنتي ولاه أهل سبتة الأمر سنة ٦٣٠هـ، لكنهم خلعوه سنة ٦٣٥هـ، ورجعوا إلى بيعة الرشيد الموحدي فولى عليهم ابن خلاص، ... وسنة تغريب أبي الحسن عند كل من ابن الزبير وابن الخطيب هي سنة ٦٤١هـ، وكان ابن خلاص فيها هو حاكم سبتة لا الياشنتي، ... وبمقارنة ما قاله ابن الخطيب في "الإحاطة" وما قاله ابن الزبير معاصر وتلميذ أبي الحسن الشاري في "صلة الصلة" ندرك أن الذي غرب أبا الحسن الشاري هو ابن خلاص وليس الياشنتي))[٣٥].

ويؤكد هذا الكلام ويؤيده ما رواه الذهبي عن أبي القاسم ابن عمران الحضرمي ((عن سبب إخراج الشاري من سبتة أن ابن خلاص وكبراء أهل سبتة عزموا على تملك سبتة لصاحب إفريقية يحيى ابن عبد الواحد، فقال لهم الشاري: يا قوم خير إفريقية بعيد عنا وشرها بعيد، والرأي مداراة ملك مراكش، فما هان على ابن خلاص، وكان فيهم مطاعا فهيأ مركبا، وأنزل فيه أبا الحسن الشاري وغرّبه إلى مالقة، وبقي بسبتة أهلُه ومالُه.. وله بسبتة مدرسة مليحة كبيرة))[٣٦]. لقد غُرب أبي الحسن الشاري إلى الأندلس، وأُبعد عن مدينته سبته تاركا ورائه أهله وماله ومدرسته وتلاميذته، ودخل ألمرية ((فأخذ عنه من أهلها عالَم من الناس، ... ومكث بها إلى سنة ٦٤٨هـ، ثم انتقل إلى مالقة، ... ودخل غرناطة قبل أن يعود إلى مالقة التي سيتوفى بها سنة ٦٤٩هـ، وكان يروم العودة إلى سبتة))[٣٧].

ثانيًا: جهود أبي الحسن الشاري في وقف خزانة الكتب وانعكاساتها العامة

لقد انفتحت مختلف الفئات الاجتماعية بالغرب الإسلامي على ظاهرة الوقف، وتأصلت مرجعيته في اعتباره "صدقة جارية" حث عليها الإسلام ورغب فيها[٣٨]، وإذا كان تاريخ الظاهرة بالغرب الإسلامي يرجع إلى وقت مبكر[٣٩]. فإن ما ارتبط منها بعملية وقف الكتب على المؤسسات الدينية والثقافية لم يظهر إلا في وقت متأخر[٤٠] بمدينة سبتة التي شكلت أول مدينة مغربية تعرفت على هذا النوع من المؤسسات الثقافية التي تهتم بتنظيم الإنتاج الثقافي المكتوب والمدوّن، وتجمعه في دُور خاصة، حملت اسم الخزانات العلمية أو المكتبات أو دور الكتب[٤١]، وذلك زمن وقف خزانة كتب الشيخ أبي الحسن الشاري (ت. ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) على المؤسسة التعليمية التي أنشأها بسبتة دعمًا للحياة الفكرية والثقافية بها، وقد أجمعت المصادر التي ترجمت له أنه كان ((جماعة للكتب والدفاتر مغاليًا في أثمانها،

وربما أعمل الرحلة في التماسها، حتى اقتنى منها مجموعة كبيرة فيها، ثم انتقى منها جملة وافرة فحبسها في مدرسة أحدثها بجوار باب القصر، أحد أبواب بحر سبتة))[٤٢]. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل عيَّن لها أطرا تنظيمية تسهر على تدبيرها وتسييرها، سالكا في ذلك طريقة أهل المشرق[٤٣]، فاختار لها مداخيل خاصة ((من خيار أملاكه، وجيد رباعه، جملة وقّفها عليها))[٤٤].

ولا يستبعد أحد المتخصصين في الموضوع[٤٥] إرجاع أول ظهور لظاهرة وقف الكتب بالغرب الإسلامي إلى الفترة الأموية بالأندلس، واستمر ذلك من بعدهم بالمغرب على عهد المرابطين. والراجح أن هذا الوقف لم يستهدف مؤسسات ثقافية عامة، بقدر ما استهدفت مؤسسات خاصة لذوي النفوذ أو أفرادًا بعينهم؛ ومن هنا يمكن تأطير مبادرة الفقيه محمد بن عيسى بن فرج (ت.٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) الذي أوقف كتبه على طلبة المغرب[٤٦]، دون أن يفصل المصدر في دواعي وأهداف وشروط هذا الوقف. ولا نستبعد أن مثل هذه المبادرات هي التي شكلت البذرة الأولى ليشمل وقف الكتب المؤسسات الثقافية والدينية العامة خلال العهد الموحدي الذي نشطت فيه الظاهرة وتطورت مع المبادرة التي قام بها أبي الحسن الشاري. وفي هذا الصدد نذكر أن المرتضى الموحدي أوقف كتاب "التمهيد" فضلا عن ربعة قرآنية[٤٧] من عشرة أجزاء على إحدى المدارس العامة وهي مدرسة جامع ابن يوسف، واشترط في وقفه للكتاب تمكينه للطلاب ((متى أرادوا القراءة فيه ليلاً أو نهارًا، من غير إخراج له من المدرسة))[٤٨]. وبدخول رموز السلطة هذا الميدان يمكن فهم التأثير الإيجابي الظاهرة والارتياح الذي لقيته من قبل مختلف الفئات الاجتماعية من جهة، وتعكس في الآن نفسه التدافع الكبير بين هذه المكونات حول توجيه فعل القراءة من خلال التحكم في طبيعة المصنفات الموقوفة على المؤسسات الثقافية والدينية العامة. وذلك ما سيتضح بشكل جلي مع اتساع وقف وتحبيس الكتب موازاة مع سياسة إنشاء المدارس والكراسي العلمية التي انتشرت في العهد المريني، أو من خلال استشعار أهل الولاية والتصوف بأهمية وقف الكتب وتحبيسها وذلك بإنشاء خزانات خاصة بالزوايا، لتأطير المريدين والواردين عليها.

وثم ما يشير إلى أن هذا التنافس بين مختلف المكونات الاجتماعية أسهم في خلق نوع من التوزيع المجالي لهذه المؤسسات الوقفية العامة بمناطق عديدة بالمنطقة، وعمت بذلك المساجد والمكتبات والخزانات العلمية والمدارس والأضرحة والزوايا[٤٩]. وقد صاحب هذا التوسع في عمليات وقف وتحبيس الكتب بعض الأحكام الفقهية حول مسألة وتقنين توثيق عملية الوقف مع اشتراط طرق استغلاله[٥٠] خوفا من ضياعه أو سوء استغلاله. وإذا كانت الأهداف الكبرى من عملية وقف وتحبيس الكتب والمصاحف ترنو إلى مساعدة طلبة العلم للانتفاع بها في القراءة والمطالعة والنسخ، فإن ما كان يطرأ على شروط الوقف[٥١] ومكان تحبيسها ووقفها من تغييرات لا ينبغي أن يحجب أهدافها النبيلة ووظيفتها السامية في جلب "المنفعة العامة"[٥٢].

وتأكيدًا لهذا الغرض فقد أنشأ أبي الحسن الشاري بمدينته سبتة مدرسته التي عرفت باسمه "المدرسة الشارية" سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) ووقفها على أهل العلم[٥٣]، وأسهم بنفسه في تنشيطها وروايتها الحديث بها[٥٤]. وتعتبر هذه المؤسسة التعليمية الأولى من نوعها في المدينة، بل تُعَدّ أول مدرسة خاصة في تاريخ الغرب الإسلامي، قبل أن يتبنى المرينيون سياسة بناء المدارس. وقد ((بناها أبي الحسن الشاري من ماله الخاص، ووقف عليها مكتبة زاخرة ضمت أعلاقا ونفائس .. لم تكن عند أحد من أبناء عصره))[٥٥]، وتعد بذلك أقدم خزانة كتب مدرسية بالمنطقة، وضع فيها ما تحصل ((عنده من الأعلاق النفيسة وأمهات الدواوين))[٥٦]، ويؤكد هذا الأمر الأنصاري وهو يتحدث عن خزانات كتب القرن (٨هـ/ ١٤م)، بقوله: ((وكان منها في زماننا سبع عشرة خزانة، تسع بدور الفقهاء والصدور، ... وثمان موقفة على طلاب العلم، أقدمها الخزانة الشهيرة ذات الأصول العتيقة والمؤلفات الغريبة؛ خزانة الشيخ أبي الحسن الشاري المذكور التي بالمدرسة المنسوبة إليه التي ابتناها من ماله، وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم))[٥٧].

وفي مقابل ارتفاع أثمان بعض الكتب الذي شكل عائقًا أمام إمكانية حصول الكثير من الطلبة عليها، والاستفادة منها، فقد تنافس بعض المحظوظين اجتماعيًا على اقتناء النوادر والأمهات[٥٨] منها لأغراض متعددة، قد تكون بهدف قراءتها ومراجعتها والاستفادة منها أو حبًا في امتلاكها والتباهي بها، كما شاع عند كثير من الميسورين، وذلك ما تؤكده الرسالة التي وُجهت إلى أبي الحسن الشاري، رسالة مفادها أن ((دفاتر العلم يغالى بقيمتها فتدخر، ليس إلا ليتباهى باكتسابها ويفتخر))[٥٩]. وتُعَدّ مبادرة أبي الحسن الشاري الخاصة في عملية وقف خزانة عامة للكتب تحولا جذريا في المكانة والتقدير والاحترام التي نالتها الثقافة العالمة في مجتمع الغرب الإسلامي؛ وبهذا الصدد

يشير العلامة محمد المنوني[٦٠] رغم تحفظه إلى أن الذي أسس أول خزانة كتب عامة بالمغرب هو أبو الحسن الشاري بتحبيسه بسبتة خزانة مدرسته[٦١]، ويذهب الاتجاه نفسه أحمد شوقي بنبين بقوله: ((يحتمل أن يكون وقف الكتب في المغرب أقدم مما يظن))[٦٢].

وعلى الرغم من وجاهة الرأيين السابقين، فإن غياب الدليل القاطع بوجود هذه المنقبة قبل خزانة أبي الحسن الشاري، يرجح ما ذهبنا إليه، ويعضد هذا الأمر ما أصبغه على الخزانة بإعطائها طابعها المؤسساتي فجعل على نظارتها محمد بن إبراهيم الغافقي[٦٣]، مما يجعل احتمال وجود الظاهرة قبل هذه الفترة هو مجرد تعويل على بعض المبادرات الوقفية لعدد محدود جدًا من الكتب.

وكيفما كان الحال فقد نسبت هذه الخزانة لمؤسسها[٦٤] الذي أجمعت المصادر التي أرخت له بأنه كان ((شغوفًا بجمع الكتب مغرما بتملكها، فكون مكتبة عظيمة جمعت من الأعلاق النفيسة وأمهات الدواوين شيئا عظيما، ولقد نافس فيها وغالى في أثمانها، وربما رحل في ذلك حتى حصل منها ما لم يكن عند أحد من أبناء عصره، ولا تحصل عند كثير ممن تقدمه))[٦٥].

وقد كان لظهور خزانات الكتب لا سيما العامة منها أبعادًا هامة في الترويج لثقافة المكتوب، ولعبت أدوارا لا يستهان بها في تلبية حاجات الطلبة والمدرسين من الكتب، ويعكس ذلك التقدير الذي حظي به أبو الحسن الغافقي الشاري (ت.٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) من النخبة المثقفة بعد مبادرته إنشاء أول خزانة عامة بسبتة [٦٦]. نذكر بهذا الصدد مدح أبي الحسن بن إسماعيل الأغماتي[٦٧] لأبي الحسن الشاري قائلاً:

بنيت لأهل الغرب مجدًا وسؤددًا
وفخرًا على الأيام يبقى مـــــؤبدًا
ومدرسة للعلـــم قلدت جيدها
من الكتب الأعلاق درا منضدا
نفائس كتب لو تصدى لجمعها
أخو جدة فذ المعارف أجـــهدا

لم تخف المصادر التي أرخت لأبي الحسن الشاري (ت.٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) ما ناله من "عظمة في النفوس" بفعل ما قام به من ((تحصيل للكتب بأغلى الأثمان)) لإحياء العلم بسبتة، فصارت شهرته "حيا وميتا"[٦٨]، وأسهم بذلك في بعث روح جديدة في علاقة إنسان العدوتين بالمعرفة العالمة من خلال هذه السُنّة الحسنة، ولم يدخر الجهد في نشر المعرفة المكتوبة، بل وتوجيه الطلبة إلى التعلق بها، وتمكينهم منها[٦٩]، فشكلت بذلك إحدى طرق توزيع الكتاب ونشره وتداوله، ومن خلالها تنشيط حركة الكتاب ووضعه رهن إشارة القراء من مختلف الفئات الاجتماعية لا سيما الطلبة والمعوزين منهم.

وإذا وضعنا سلوك أبي الحسن الشاري المتميز هذا ضمن السلوك العام اتجاه المعرفة العالمة، والذي تحكم في صياغة ذهنية خاصة المجتمع، يتضح حجم وقيمة هذه العملية، إذ أصبح من العادة مثلا عند أهل قرطبة أن صار الاعتناء بالكتب ((من آلات التعين والرياسة))[٧٠]، وصار ((الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب))[٧١]، حتى وإن سقط في الاعتبار غرض القراءة منها، فالتفاوت الاجتماعي وضع أعرافًا وتقاليد، أصبحت بمثابة قواعد جمعية، ألزمت الخاصة أن ((ينتخب فيها، ليس إلا لأن يقال فلان عنده خزانة كتب))[٧٢]. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل عمقت ثقافة الكتاب عند الخاصة سلوك التباهي والتنافس بأشكال الكتب وأسمائها، ليس لشيء إلا لأن يقال ((الكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به))[٧٣].

وتجدر الإشارة إلى أن وقف الكتب على الخزانات، كان يتم بطريقتين؛ إما عن طريق تحبيس خزانة كاملة وجاهزة دون مساهمة أو مساعدة خارجية كما فعل أبو الحسن الشاري، أو عن طريق مساهمة بعض خاصة المجتمع في إغناء مجموعة من الخزانات بكتاب أو أكثر، كما فعل ابن خلدون عند تحبيسه لكتابه "العبر" على خزانة جامع القرويين سنة (٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م)[٧٤]. ويتضح من خلال النصوص أن وقف الكتب على الخزانات بعد مبادرة أبي الحسن الشاري، اقتصر في الغالب على المساجد والمدارس[٧٥]، ويبدو ذلك واضحا خلال العهد المريني؛ إذ حبست خزانات الكتب على جل مدارس الفترة، بل إن بعض المدارس حظيت بخزانتين، كالمدرسة الجديدة في سبتة التي أنشأها أبو الحسن المريني (ت.٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)[٧٦].

والغالب على الظن أن انتشار الخزانات العامة للكتب خلال العصر الوسيط ارتبط بانتشار المدارس بمدن المغرب والأندلس، وأصبح لمدارس البوادي أيضًا خزاناتها العامة، ونعتقد أن هذه الخزانات وجدت ببعض البوادي منذ القرنين (٧ و٨هـ/ ١٣-١٤م)، واستمرت إلى وقت متأخر؛ مثل خزانة مدرسة علم الكلام بجبل بني يرزو بمملكة فاس التي بلغت قيمة كتبها مع بداية القرن أربعة آلاف مثقال[٧٧].

ولعل ارتباط هذه الخزانات بالمدارس وجعلها تحت تصرف الأساتذة والطلبة كان يضفي عليها نوعا من الخصوصية،

باستثناء خزانات المساجد والجوامع التي كانت مفتوحة في وجه العموم، ولقد تم الاهتمام بهذه الأخيرة بشكل كبير مع بداية مرحلة فتور حركة بناء المدارس بالمدن منذ منتصف القرن (٨هـ/ ١٤م)، فأضحت الجوامع الكبرى مجالاً لتحبيس ووقف المصنفات وخزانات الكتب[٧٨]. ويبدو أن هذه الخزانات ارتبطت بالمدن المشهورة، إذ لم يكن الاهتمام بالكتب في الأندلس وقفًا على مدينة قرطبة، بل تعداها إلى مدن أخرى وفي مقدمتها إشبيلية وطليطلة ومرسية وغرناطة، ويذكر أن في المدينة الأخيرة سبعين مكتبة عامرة غير المكتبات الخاصة[٧٩]. أما ببلاد المغرب فقد انتشرت بالمدن الكبرى مجموعة من خزانات الكتب، كمدينة مراكش ومكناس[٨٠] وسلا وسبتة[٨١]، وأهمها ما كان موجودًا بمدينة فاس خاصة بعد احتلال مدينة سبتة[٨٢].

ومن المؤكد فإن تأثير الأحداث المحيطة ببداية التدهور الذي عرفته الدولة الموحدية سينعكس سلبًا على هذه المبادرة، فضلا عما خلفه تغريب أبي الحسن إلى الأندلس من توقف هذا المشروع الطموح سواء على سير المدرسة أو الخزانة معا. فقد عاق تردي الأوضاع وتوالي الفتن ((عن كمال غرضه في ذلك قواطع الفتن الموجبة لإخراجه عن بلده وتغريبه))[٨٣]. وفي الإطار ذاته ما إن حل العقد الثاني من القرن (٧هـ/ ١٣م) حتى عرفت بلاد الغرب الإسلامي المجاعات والفتن، فتوالى الخراب على مرافق الصناعات المختلفة[٨٤]، وتأثرت وضعية الكتاب بهذا التحول، فأصبحت خزانات الكتب بأحد قصور الموحدين بمراكش أقفاصًا للطيور[٨٥].

خَاتِمَةٌ

عمومًا فقد تطور وقف وتحبيس خزانات الكتب منذ أن ظهر بسبتة مع الفقيه أبي الحسن الشاري الذي يرجع له الفضل في وضع الأساس الأول لها، فبدأت تنتشر في مجمل مناطق الغرب الإسلامي لاسيما مع سياسة إنشاء المدارس خلال العهد المريني، وما رافق ذلك من نظام لوقف الخزانات العلمية التي همت أيضا المساجد والزوايا والرُّبط. دعمًا وتشجيعًا للحركة العلمية، وتلبية لحاجات الناس لاسيما العوام منهم الفكرية والثقافية. ولم تكن العملية وضع للكتاب رهن إشارة القراء من العوام فحسب؛ بل إنها خففت من حدة التفاوت الاجتماعي على مستوى المعرفة العالمة، وتساوت الحظوظ في سُلم طلب العلم والمعرفة، وظلت عملية الوقف والتحبيس للكتب المحفز الأساسي للطلاب على النهل المعرفي، ومارست الخزانات العلمية -منذ ظهرت- نوعًا من الجاذبية الحضرية على طلاب البادية خاصة، ومنحت للمدن سحنة ثقافية وعلمية جديدة، وقللت أيضًا من طغيان الاعتماد على الذاكرة في حفظ المتون والأسانيد، فحل الكتاب محل الذاكرة في أحيان كثيرة، وحظي بمزيد من اهتمام الخواص والعوام، لا سيما مع اتساع صناعة الوراقة والنسخ في مجمل مدن الأندلس والمغرب الوسيط.

الهَوامِشُ:

(١) ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م: ٢٣٨.

(٢) جُمع القرآن الكريم على عهد عثمان بن عفان فيما سمي بـ"مصحف عثمان"، ثم فيما بعد جمع الحديث في مجموعة من الصحاح والأسانيد، استناداً إلى قوله (ﷺ) ((قيدوا العلم بالكتاب))، الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م): **تقييد العلم**، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م: ٦٨. ولما انتشر الإسلام واتسعت الأمصار وتفرق الصحابة في الأقطار، وحدثت الفتن، واختلاف الآراء وكثرت الفتاوى، أخذوا في تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن، واشتغلوا بالنظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط، وتمهيد القواعد والأصول وترتيب الأبواب والفصول وتكثير المسائل بأدلتها وإيراد الشبهة بأجوبتها وتعيين الأوضاع والاصطلاحات وتبيين المذاهب والاختلافات وكان ذلك مصلحة عظيمة وفكرة في الصواب مستقيمة فرأوا ذلك مستحبًا بل واجبًا لقضية الإيجاب المذكور مع قوله (ﷺ) ((العلم صيد والكتابة قيد قيدوا رحمكم الله تعالى علومكم بالكتابة)). مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م: ١/ ٣٣-٣٤.

(٣) رغم ما ساد في القرنين الأولين من بداية الدولة الإسلامية من تخوف من ترك الحفظ، فقد تم حث الناس على حفظ السنن نظرا لقرب الإسناد، ونهي عن الاتكال على الكتاب لأن ذلك حسب اعتقاد الخطيب البغدادي يؤدي إلى اضطراب الحفظ حتى يبطل. ولهذا احتج بما نسب إلى سفيان الثوري قوله ((بئس المستودعُ العلم القراطيس)) رغم أنه كان يعتمد على الكتاب احتياطا واستيثاقا. **تقييد العلم**: ٥٨.

(٤) للاطلاع على هذا الكم الهائل من المكتبات ليس فقط في الغرب الإسلامي وحسب بل في مجمل العالم الإسلامي يُنظر عبد الحي الكتاني: **تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألّف في الكتب**، ضبط وتعليق أحمد شوقي بنبين وعبد القادر سعود، المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، نشر المكتبة الحسنية بالرباط، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م.

(٥) ارتبط هذا التشجيع من لدن الدول المركزية بتوجهها المذهبي، إذ تم الاهتمام على عهد الدولة المرابطية بكتب المذهب المالكي على وجه الخصوص، عبد الواحد المراكشي: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م: ١٢٢). أما في العهد الدولة الموحدية فقد تم الاهتمام بكتب الحديث بشكل لم يسبق له مثيل لدى الأسر الحاكمة في أقطار العالم الإسلامي خلال الفترة الوسيطية، ويظهر هذا الحرص في قيام الخلفاء الموحدين بتعليم الحديث بأنفسهم، فالمهدي بن تومرت كان يدرس الحديث برباط هرغة منذ سنة ٥١٥هـ، وفيه أملى موطأ الإمام مالك على تلميذه عبد المؤمن وغيره، وهذا الأخير أملاه بمراكش سنة ٥٤٤هـ، بعد أن تم القضاء على المرابطين. للمزيد من الاطلاع على موضوع مظاهر تشجيع الموحدين لكتب الحديث يرجع إلى أسكان الحسين: **جوانب من تاريخ التعليم في المغرب الوسيط من القرن ٧هـ إلى القرن ٩هـ/١٣-١٥م**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، السنة الجامعية ١٩٨٧-١٩٨٨م، (رسالة مرقونة): ١٠٢ وما بعدها. الحسيسن عبد الهادي أحمد، **مظاهر النهضة الحديثة**، طبعة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٨٢م: ٢٨٧. أحمد الصديقي: **الكتب والمكتبات ببلاد الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، مساهمة في دراسة موقف المجتمع من القراءة**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ، بجامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، الموسم الجامعي ٢٠٠٢-٢٠٠٣م، (بحث مرقون): ٦٠-٧٣. وللباحث نفسه: **الكتاب بالمغرب والأندلس إسهام في دراسة انعكاسات ثقافة الكتاب على المجتمع، من القرن ٦هـ/ ١٢م إلى القرن ٨هـ/ ١٤م**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، بجامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، الموسم الجامعي ٢٠١٠-٢٠١١، (رسالة مرقونة): ١٧٦-١٨٥.

(٦) ماهر حمادة: **المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصادرها**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م: ٣٤.

(٧) ابن بشكوال: **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩م: ١/ ١٣٦.

(٨) أحمد الصديقي، **الكتاب بالمغرب والأندلس**: ٤٢٥.

(٩) محمود إسماعيل، **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي محاولة تنظير**، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م: ١/ ١٥٠.

(١٠) ليفي بروفنصال: **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د. ت): ٦٩.

(١١) ابن عبد الملك: **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٤م: س ٨/ ٢٩. محمد بن عبد الهادي المنوني: **ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطابع الأطلس، ١٩٩٢م: ١٩٧.

(١٢) عبد الواحد المراكشي، **المعجب**: ١٦٨.

(١٣) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**: س ٨ ق ٢/ ٤٨٤.

(١٤) ابن عسكر، **أعلام مالقة**: ص ٣٣٦. أحمد شوقي بنبين: **دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٧، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م: ٣٩.

(١٥) احتفظ العلامة محمد المنوني باسم "دُور الكتب" للدلالة على مصطلح الخزانات والمكتبات، إلا أنه اقتصر على استعمال المفهوم على عنوان الكتاب فقط، وركن إلى استعمال المفاهيم الأخرى الشائعة (الخزانات والمكتبات) في متن الكتاب. يُنظر كتابه **دور الكتب في ماضي المغرب**،

المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، نشر الخزانة الحسنية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

(١٦) ابن السكاك، **نصح ملوك الإسلام**: ٢١.

(١٧) ابن العماد، **شذرات الذهب**: ٣/ ١٦.

(١٨) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**: ٢٣/ ٢٧٥.

(١٩) ابن الزبير (أبو جعفر أحمد)، **صلة الصلة**، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٤: ٤/ ١٦٢.

(٢٠) ابن القاضي (أحمد المكناسي، ت.١٠٢٥هـ)، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ط ١٩٧٣- ١٩٧٤م: ٢/ ٤٨٥- ٤٨٦.

(٢١) ضمن مقاله أبو الحسن الغافقي الشاري، مجلة المناهل، عدد ٢٤، يوليو ١٩٨٢م.

(٢٢) هو محمد بن عبد الكريم الفندلاوي (ت. ٥٩٦هـ) من أهل مدينة فاس يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن الكتاني، كان إمامًا في علم الكلام وأصول الفقه مدرسا لذلك حياته كلها. ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**: ٢/ ١٦١.

(٢٣) هو عبد الرحمن بن يوسف بن محمد بن يوسف بن عيسى الأزدي يعرف بابن الملجوم من أهل فاس، كان من أهل المعرفة بالشعر والأنساب والحفظ للتواريخ. ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**: ٣/ ٥٢.

(٢٤) هو مرجي بن يونس بن سليمان بن عمر بن يحيى الغافقي من أهل مرجيق بغرب الأندلس، كان من أهل المعرفة بالقراءات والعربية.. وكان دينا فاضلا مقرئا نحويا. ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**: ٢/ ٢٠٠.

(٢٥) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن بن حسين بن سعدون بن رضوان بن فتوح الخثعمي السهيلي، من أهل مالقة، كف بصره بما نزل به وهو ابن سبع عشرة سنة وكان عالماً بالقراءات واللغات والعربية وضروب الآداب مقدمًا في الفهم والفطنة والذكاء فبعد صيته وجل قدره. له مؤلفات عدة منها: الروض الأنف في شرح السير لابن إسحاق، والتعريف والإعلام بما أبهم في القرآن العزيز من الأسماء والأعلام.

(٢٦) ابن الزبير، **صلة الصلة**: ٤/ ١٦٢. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**: ٢٣/ ٢٧٦.

(٢٧) ابن الزبير، **صلة الصلة**: ٤/ ١٦٢. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**: ٢٣/ ٢٧٦-٢٧٧.

(٢٨) ابن حجر، **الدرر الكامنة**: ١/ ٩٦.

(٢٩) ابن العماد، **شذرات الذهب**: ٣/ ١٦. الذهبي: **سير أعلام النبلاء**: ٢٣/ ٢٧٨.

(٣٠) ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**: ٣/ ٢٥١- ٢٥٢.

(٣١) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**: ٢٣/ ٢٧٧.

(٣٢) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**: ٢٣/ ٢٧٨.

(٣٣) ابن الزبير، **صلة الصلة**: ٤/ ١٦٢. ابن الخطيب (لسان الدين الغرناطي)، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ٢٠٠١م: ٤/ ١٨٩.

(٣٤) ابن الخطيب، **الإحاطة**: ٤/ ١٨٧- ١٩٠.

(٣٥) ضمن مقال أبو الحسن الغافقي الشاري، مجلة المناهل، عدد ٢٤، يوليو ١٩٨٢م.

(٣٦) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**: ٢٣/ ٢٧٧.

(٣٧) ابن الخطيب، **الإحاطة**: ٤/ ١٨٧- ١٩٠. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**: ٢٣/ ٢٧٧.

(٣٨) قال رسول الله (ﷺ) "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" سنن الترمذي حديث رقم ٣٦٩٩، وجاء في الصحيح من حديث أب عمر: "أن عمر بن الخطاب أصاب أرضا بخيبر، فأتى النبي (ﷺ) يَسْتَأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أَصَبت أرضا بخيبر لَم أُصب مالاً قطّ أَنفس عندي منه، فما تَأْمر به، قال: إن شئت حَبَسْتَ أصلها وتصدقت بها، قال: فتصدّق بها عمر؛ أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث، وتصدّق بها في الفقراء وفي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضّيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويُطعم غير مُتَمَوِّل" صحيح البخاري حديث رقم ٢٧٣٧. وبذلك فإن الوقف والتحبيس عامة من أعمال البر والإحسان التي رغب فيها الإسلام، قال تعالى: (وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (سورة الحج، الآية ٧٧)، ووضع لها شروطا مقيدة تضبطها، لكي لا تخرج عن مسار أهدافها وغايتها.

(٣٩) بدأت ظاهرة وقف الكتب في الانتشار منذ القرن (٤هـ/ ١٠م)، فقد كانت أميمة الكاتبة جارية الحسن بن حي (ت.٣٠٥هـ/ ٩١٨م) تكتب المصاحف وتحبسها. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة: ٨/ ٢/ ٤٨٤. وكان قاسم بن سعدان بن إبراهيم من أهل رية (ت.٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) أشد الناس اعتناء بالكتب ((ولم يزل في نسخ ومقابلة إلى أن مات، ... وحبس كتبه فكانت موقفة عند محمد ابن أبي دليم)). ابن عسكر، **أعلام مالقة**: ٣٣٦.

(٤٠) يرجع العلامة محمد المنوني أول وقف لخزانة الكتب بالمغرب إلى عهد الموحدين. المنوني، **حضارة الموحدين**: ١٨٦.

(٤١) احتفظ العلامة محمد المنوني باسم "دُور الكتب" للدلالة على مصطلح الخزانات والمكتبات، إلا أنه اقتصر على استعمال المفهوم على عنوان الكتاب فقط، وركن إلى استعمال المفاهيم الأخرى الشائعة (الخزانات والمكتبات) في متن الكتاب. يُنظر كتابه دور الكتب في ماضي المغرب.

(٤٢) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**: ١٩٧/١/٨.

(٤٣) حول الأصل المشرقي لظاهرة وقف الكتب يراجع: أحمد شوقي بنبين، **ظاهرة وقف الكتب في تاريخ الخزانة المغربية**، مجلة دعوة الحق، سنة ٥٦ صفر ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، عدد ٤٠٤: ١٢-١٤.

(٤٤) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**: ٨/ ١/ ١٩٧.

(٤٥) شوقي بنبين، **دراسات في علم المخطوطات**: ٣٩.

(٤٦) ابن بشكوال، **الصلة**: ١/ ٥٢٨.

(٤٧) الربعة هي صندوق مربع الشكل، من خشب مغشى بالجلد، ذو صفائح وحلق، يقسم داخله بيوتا، بعدد أجزاء المصحف، يجعل في كل بيت منه جزء من المصحف، وتطلق الربعة مجازًا على المصحف. يُنظر **معجم مصطلحات المخطوط العرب**: ٢/ ١٤٦. محمد المنوني، **دور الكتب في ماضي المغرب**: ٤٣.

(٤٨) المنوني، **حضارة الموحدين**: ٢٠٦.

(٤٩) الونشريسي، **المعيار المعرب**: ٧/ ١٨.

(٥٠) نشطت حركة التوثيق بشكل لافت خلال القرن (٦هـ/ ١٢م). يُنظر عز الدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي**: ٢٨٦.

(٥١) نموذج التساهل أو التشدد في تحديد فترة إعارة الكتب، أو التلاعب بمحتوياتها من قبل ناظر الخزانة وغيرها من المسائل التي تخرج استعمال الكتب عن وظيفتها وأهداف وقفها.

(٥٢) ((وأردنا أن نعمل فيها بمقتضى الشرع من جعلها بخزائن كتب العلم المحبسة على المسلمين، لينتفع بها الحي والميت)). الونشريسي، **المعيار المعرب**: ٧/ ١٩.

(٥٣) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**: ٨/١/ ١٩٧.

(٥٤) ابن الخطيب، **الإحاطة**: ٤/ ١٨٧- ١٩٠.

(٥٥) ابن الزبير، **صلة الصلة**: ٤/ ١٦٢.

(٥٦) نفسه: ٤/ ١٦٢.

(٥٧) الأنصاري (محمد بن القاسم السبتي، ق٩هـ)، **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط٢، ١٩٨٣م، ص١٤٥.

(٥٨) كتب الأمهات من الاصطلاحات التي سادت بين كتّاب المذهب المالكي ببلاد الغرب الإسلامي وهي أربع: "كتاب المدونة" لسحنون، وهي من الكتب المعتمدة في المذهب ومسائلها ثلاثون ألف ومائتين مسألة، و"كتاب المستخرجة" لمحمد بن أحمد العتبي الأندلسي، وتعرف بالعتبية، و"كتاب الموازية" لمحمد بن إبراهيم الإسكندري المعروف بابن مواز، وقد وُصف هذا الأخير بكونه أجل كتاب ألفه المالكيون وأصحه مسائل وأبسطه كلاما، و"كتاب الواضحة في السنن والفقه" لعبد الملك ابن حبيب السلمي. ابن عبد القادر، **شرح الأمير علي منظومة بهرام**: ٧.

(٥٩) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**: ٨/ ١/ ١٩٨.

(٦٠) المنوني، **حضارة الموحدين**: ١٨٤.

(٦١) ابن الزبير، **صلة الصلة**: ٤/ ١٦٢.

(٦٢) شوقي بنبين، **ظاهرة وقف الكتب في تاريخ الخزانة المغربية**: ١٥.

(٦٣) مجهول (كان حيا سنة ٨٢٠هـ)، **بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م. ٣١.

(٦٤) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**: ٨/١/ ٢٠٠. ابن الزبير، **صلة الصلة**: ٤/ ١٦٢. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**: ٢٣/ ٢٧٧- ٢٧٨.

(٦٥) ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**:١/ ٣٠٨. ابن الزبير، **صلة الصلة**: ٤/ ١٦٢.

(٦٦) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**: ٨/ ١/ ١٩٧-٢٠٠. ابن الزبير، **صلة الصلة**: ٤/ ١٦٢. الأنصاري، **اختصار الأخبار**: ٢٩.

(٦٧) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**: ٨/١/ ١٩٩.

(٦٨) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**: ٢٣/ ٢٧٨.

(٦٩) لقد ربط بين المدرس والطالب خيط رفيع من التوازن في التوجه الفكري، مما يجعل أكثر الطلبة يتأثرون بقناعات مدرسيهم وأشياخهم، وحتى الذين لم يتأثروا بتلك الأفكار لم يعلنوا عنها إلا بعد تمكنهم من مصادر المعرفة واستغنائهم عن مدرسيهم، فقد قرأ أبو القاسم محمد بن عطية المحاربي على أشياخه "قراءة تفقه وعرض عليهم جملة كتب في النحو والفقه والأدب وأكبرها كتاب المقامات للحريري". ابن الخطيب، **الإحاطة**: ٣/ ٧٩-٨٠.

(٧٠) المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، ت.١٠٤٠هـ)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م: ٢/ ٢٥٤.

(٧١) نفسه: ٢/ ٢٥٤.

(٧٢) نفسه: ٢/ ٢٥٤.

(٧٣) نفسه: ٢/ ٢٥٤.

(٧٤) انظر نص وقفية كتاب "العبر" وتحليل مضامينها عند، شوقي بنبين، **دراسات في علم المخطوطات**: ٤١- ٥٤.

(٧٥) يشير ابن عبدون إلى طريقة توزيع أماكن القراءة بالمساجد؛ فقد اختصت المساجد بالعلوم الدينية وذلك بتدارس نصوص القرآن والسنة النبوية، في حين تم إنشاء أماكن خاصة لتدريس العلوم الطبيعية الأخرى بمحادة المساجد، أطلق عليها اسم السقائف، يقول: ((لا يترك أحد يقرأ في البلاطات [يهو الصلاة] إلا القرآن والسنة، وغير ذلك من العلوم في السقائف)). كما استغلت هذه السقائف بتحويلها إلى كتاتيب للإقراء الأطفال، فقد منع على المربين تعليم الأطفال بالمساجد بدافع احترازي، إذ ((يجب أن لا يؤدب فيها الصبيان، فإنهم لا يتحفظون من النجاسات بأرجلهم ولا من ثيابهم ، فإن كان ولا بد ففي السقائف)). ابن عبدون، **رسالة في القضاء والحسبة**: ٢٣- ٢٤.

(٧٦) الأنصاري، **اختصار الأخبار**: ٣٠.

(٧٧) الوزان (الحسن بن محمد الفاسي)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م: ١/ ٣٣٢.

(٧٨) الأنصاري، **اختصار الأخبار**: ٣٠. مجهول، **بلغة الأمنية**: ١٧٧.

(٧٩) مسعد (سامية مصطفى)، **الوراقة والوراقون في الأندلس من عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط١، ٢٠٠٠م: ٢٠.

(٨٠) ذكرت خزانة الجامع الأعظم بمكناس بموازاة الحديث عن وفاة أبي الفتوح المغيلي سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م. التنبكتي (أحمد بابا، ت.١٠٣٦هـ)، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٤م. ص١٦٢-١٦٣.

(٨١) ابن الخطيب، **معيار الاختيار**: ١٤٦.

(٨٢) إسماعيل الخطيب، **سبتة مدينة القاضي عياض**، ضمن أعمال **ندوة الإمام مالك دورة القاضي عياض**، بمراكش أيام ٢٠-٢١- ٢٢ مارس ١٩٨١م، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م): ٢/ ٣٢٣. وقد شبه ابن فضل الله العمري المراكشيين بأهل الإسكندرية في المحافظة على كتب علوم الشريعة. العمري (ابن فضل الله)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م: ٤/ ١١٤.

(٨٣) ابن الزبير، **صلة الصلة**: ٤/ ١٦٢.

(٨٤) ابن أبي زرع، **روض القرطاس**: ٤٩.

(٨٥) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**:١/ ١٣٤.